**من روائع ما كتب عن القرآن**

**لشيخ العربية محمود محمد شاكر**

**فصل فى إعجاز القرآن**

**بقلم الاستاذ محمود محمد شاكر**

**الحمد لله وحده لا شريك له حمدا يقربنا إلى رضوانه وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين ابراهيم واسماعيل صلاة تزلفنا إلى جنته**

**هذا كتاب ( لظاهرة القرآنية ) وكفى فليس عدلا أن أقدم كتابا هو يقدم نفسه إلى قارته وبحسب أخى الاستاذ مالك بن نبى وبحسب كتابه أن يشار إليه وإنه لعسير أن أقدم كتابا هو نهج مستقل أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل وهو منهج متكامل يفسره تطبيق أصوله كما يفسره حرص قارئه على تأمل مناحيه ولا أقول هذا ثناء فأنا أعلم أن رجلا أثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له " ويلك قطعت عنق صاحبك قالها ثلاثا ( مسند احمد )ومالك أعز علىّ من أن أقطع عنقه بثنائى أو أهلكه بإطرائى**

**ولكن أحسنى من أعرف الناس بخطر هذا الكتاب فإن صاحبه قد كتبه لغاية بينها ولأسباب فصّلها وقد صهرتنى المحن دهرا طويلا فاصطلبت بالأسباب التى دعته إلى اتخاذ منهجه فى تأليف هذا الكتاب ثم أفضيت إلى الغاية التى أرادها بعد أن سلكت إليها طرقا موحشة مخوفة وقد قرأت الكتاب وصاحبته فكنت كلما قرأت منه فضلا وجدت نفسى كالسائر فى دروب قد طال عهدى بها وخيل إلى أن مالكا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط فى مثل الفتن التى سقطت فيها من قبل ثم أقال الله عثرته بالهداية فكان طريقه إلى المذهب الصحيح هو ما ضمنه كتابه من بعض دلائل إثبات إعجاز القرآن وأنه كتاب منزل أنزله الذى يعلم الخبء فى السماوات والارض وأن مبلغه إلى الناس صلى الله عليه وسلم رسول صادق قد بلغ عن ربه ما أمره بتبليغه وأن بين هذا الرسول الصادق وبين الكلام الذى بلغه حجازا فاصلا وأن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن وبين مبلغه حقيقة ظاهرة لا يخطئها من درس سيرة رسول الله فاحصا كتأملا ثم درس كتاب الله بعقل يقظ غير غافل وهذا المنهج الذى سلكه مالك منهج يستمد أصوله من تأمل طويل فى طبيعة النفس الانسانية وفى غريزة التدين فى فطرة البشر وفى تاريخ المذاهب والعقائد التى توسم بالتناقض أحيانا ولكنها تكشف عن مستور التدين فى كل إنسان ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب فى تاريخ النبوة وخصائصها ثم فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى هو وأمى منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الاعلى ثم فى هذا البلاغ الذى جاء ليكون بنفسه دليلا على صدق نفسه أنه كلام الله المفارق لكلام البشر م جميع نواحيه وفى خلال هذا المنهج تستعلن لك المحنة التى عاناها مالك كما عانيتها أنا وكما عاماها جيل من المسلمين فى هذا القرن بل إنك لتجد المحنة مائلة فى ( مدخل الدراسة ) وهو الفصل الذى استفتح به كتابه فقد صور لك مشكلة الشباب المسلم المتعلم فى هذا العصر وما كان قاساه وما يزال يقاسيه من العنت فى إدراك إعجاز القرآن إدراكا يرضاه ويطمئنإليه وهذا ( العقل ) الحديث الذى يفكر به شباب العالم الاسلامى والذى يريد أن يدرك مايرضيه ويطمئن إليه من دلائل إعجاز القرآن هو لب المشكلة فإن ( العقل ) هبة الله لكل حى ولكن أساليب تفكيره كسب يكتسبه من معالجة النظر ومن التربية ومن التعليم ومن الثقافة ومن آلاف التجارب التى يحياها المرء فى هذه الحياة فينبغى قبل كل شىء أن نتدبر أمر هذا العقل الحديث فى العالم الاسلامى لأن فهم هذا العقل هو الذى يحدد لنا طريقناومنهجنا فى كل دراسة صحيحة نحب أن نقدمها إليه حتى يطمئن ويرضى قمنذ أول الاسلام خاضت الجيوش الاسلامية معارك أشد هو لا حيث نزل الانسان المسلم وتقوضت أركان الدول تحت وطأة الجند الظفر وتقوضت معها أركان الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسلم المنصور وظلت الملاحم دائرة الرحى قرونا متطاولة فى ميادين الحرب وميادين الثقافة حتى كان هذا العصر الاخير**

**وهذا الإشعاع كما سماه مالك كان من أعظم الاسباب وأبعدها خطرا فى ( العقل ) الحديث الذى يريد أن يدرك دلائل إعجاز القرآن إدراكا يرضى عنه ويطمئن إليه وهو الذى أوقع الشك فى الاصول القديمة التى قامت عليها أدلة إعجاز القرآن بل أكبر من ذلك فإنه قد أتى بأساليب غاية فى الدهاء والخفاء أفضت إلى تدمير الوسائل الصحيحة التى ينبغى أن يتدرع بها كل من درس نصا أدبيا حتى يتاح له أن يحكم على جودته أو رداءته فضلا عن بلاغته أو إعجازه وقد ذكر مالك فى ( مدخل الدراسة ) تلك القضية الغربية التى عرفت بقضية ( الشعر الجاهلى ) والتى أثارها المستشرق ( مرجلويث ) فى بعض مجلات المستشرقين ثم تولى كبرها ( طه حسين ) فى كتابه ( فى الشعر الجاهلى ) يوم كان استاذا للادب العربى بالجامعة المصرية ولكنى أذكر منا ذكر مالك أن هذه القضية بأدلتها ومناهجها قد تركت فى ( العقل ) الحديث فى العالم الاسلامى أثرا لا يحمى إلا بعد جهد جهيد والعجب أن ( مرجليوث ) قد أتى فى بحثه نزيف كثير كان هو الأساس الذى بنى عليه هذا ( العقل ) وقد حاول مئات من رجال الفكر أن يزيفوا الأدلة والمناهج ولكن هذا الزيف بقى بعد ذلك طابعا مميزا لأكثر ما ينشره الطلبة والاساتذة إلى يومنا هذا ولا تحاكم مرجليوث ) وأشياعه إلى رأيك ونظرك بل دع محاكمته إلىمستشرق مثلههو ( آربرى ) يقول فى خاتمة كتابه ( المعلقات السبع ) وذكر أقوال مرجليوث وفندها " إن السفسطة وأخشى أن أقول : الغش فى بعض الادلة التى ساقها الاستاذ ( مرجليوث ) أمر بيّن جدا ولا يليق البته برجل كان ولا ريب من أعظم أئمة العلم فى عصره وهذا حكم شنيع لا على ( مرجليوث ) وحده بل على كل أشياعه وكهنته وعلى ما جاءو به من حطام الفكر ولكن العجب عندى بعد ذلك أن مالكا ارتكز على ذكر هذه القضية وعلى أثرها فى العقل الحديث ثم انطلق منها إلى نتيجة أخرى فقال : وعلى هذا فالمشكلة يوضعها الراهن نتجاوز فى مداها نطاق الادب والتاريخ وتهدم مباشرة منهج التفسير القديم كله ذلك التفسير القائم على الموازنة الأسلوبية معتمدا على الشعر الجاهلى كحقيقة لا تقبل الجدل وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تثور هذه المشكلة تبعا للتطور الجديد فى الفكر الاسلامى وإنما بصورة أقل فمنهج التفسير القديم يجب أن يتعدل فى حكمه وروية لكى يتفق مع مقتضيات الفكر الحديث ثم قال " لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق لبشر وكان لجوء التفسير الى الدراسة الاسلوبية لكى يضع لإعجاز القرآن أساسا عقليا فلو أننا طبقا نتائج فرض ( مرجليوث ) لانهار ذلك الاساس عقليا فلو أننا طبقا نتائج فرض ( مرجليوث ) لانهار ذلك الاساس ومن هنا توضع مشكلة التفسير على اساس مهم بالنسبة لعقيدة المسلم أعنى برهان إعجاز القرآن فى نظرة ثم أقضى إلى هذا الحكم " والحق أنه لا يوجد مسلم وخاصة فى البلاد غير العربية يمكنه أن يوران موضوعيا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلى فمنذ وقت طويل لم نملك فى أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من موازنة ادبية نتيجة عادلة حكيمة وأنا أحب أن أناقش هذه المقالة حتى أعين القارىء على أن يضع كتاب ( الظاهرة القرآنية ) فى مكانه الذى ينبغى له وحتى نتبين له معالم الطريق الذى يسير فيه وهو يقرأ هذا الكتاب وحتى يستفيد من أدلته وبراهينه قوة تعينه على أن يضع أساسا يقيم عليه عقيدته وإيمانه ولا أدرى ما الذى ألجأ أخى مالكا إلى ذكر ( تفسير القرآن ) ومنهجه القديم فى هذا المواضع ؟ إنه إقحام لباب من علوم الاسلام قائم برأسه لا يمسه فرض ( مرجليوث ) من قريب أو بعيد وعلم تفسير القرآن كما أسسه القدماء لا يقوم على موازنة الاساليب اعتمادا على شعر الجاهلية وإذا اقتضتنا الحاجة ان ندخل تعديلا علي منهج التفسير القديم فإنه عندئذ تعديل لا علاقة له البتة بالشعر الجاهلى بأسلوب القرآن وكل ما عند القدماء من ذكر الشعر الجاهلى فى تفسيرهم فهو أنهم يستدلون به على معنى حرف فى القرآن او بيان خاصة من خصائص التعبير العربى كالتقديم والتأخير والحذف وما إلى ذلك وهذا أمر يصلح له شعر الجاهلية كما يصلح له شعر الاسلام وغاية علم تفسير القرآن كما ينبغى أن يعلم إنما عى بيان معانى ألفاظه مفردة وجملة مجتمعة ودلالة هذه الالفاظ والجمل على المبانى سواء فى ذلك أيات الخير والقصص وآيات الآداب وآيات الاحكام وسائر ما اشتملت عليه معانى القرآن وهو أمر عن ( إعجاز القرآن ) بمعزل أما الامر المرتبط بالشعر الجاهلى أو بقضايا الشعر جميعا والنتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية وأساليب العربية وفير العربية وموازنتها بأسلوب القرآن فهو علم ( إعجاز القرآن ) ثم ) علم البلاغة ) ولا مناص لمتكلم فى ( إعجاز القرآن ) من أن يتبين حقيقتين عطيمتين قبل النظر فى المسألة وأن يفصل بينهما فصلا ظاهرا لا يلتمس وأن يميز أوضح التمييزبين الوجوه المشتركة التى تكون بينهما :**

**اولاهما : أن ( إعجاز القرآن ) كما يدل عليه لفظه وتاريخه وهو دليل النبى صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته وعلى أنه رسول الله يوخى إليه هذا القرآن وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعرف ( إعحاز القرآن ) من الوجه الذى عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب وأن التحدى الذى تضمنته أيات التحدى من نحن قوله تعالى : (**

**وقوله ( إنما هو تحد بلفظالقرآن ونظمته وبيانه لا بشىء خارج عن ذلك فما هوبتحد بالإخبار بالغيبالمكنون وى بالغيب الذى يأتى تصديفه بعد دهر من تنزليه ولابعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ولا بشىء من المعانى مما لا يتصل بالنظم والبيان**

**ثانيهما : أن إثبات دليل النبوة وتصديق دليل الوحى وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والانجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه لايكون منها شىء يدل على ان القران معجز ولا اطن ان قائلا يستطيع ان يقول إن التوراة والانجيل والزبور كتب معجزة بالمعنى المعروف فى شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتب منزلة من عند الله ومن البين ان العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ودليل صدق الوحى الذى يأتيه بمجرد سماع القرآن نفسه لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة فى توحيد الله او تصديق نبوته ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الانباياء مما آمن على مثله البشر وقد بين الله فى غير أية من كتابه أن سماع القرآن يققتضيهم إدراك مباينته لكلامهم وأنه ليس من كلام بشر بل هو كلام رب العالمين وبهذا جاء الأمر فى قوله تعالى (**

**فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة اما صحة النبوة فليست برهانا على إعجاز القرآن والخلط بين هاتين الحقيقتين واهمال الفصل بينهما فى التطبيق والنظر وفى دراسة ( إعجاز القرآن ) قد أفضى الى تخليط شديد فى الدراسة قديما وحديثا بل أدى هذا الخلط إلى تأخير علم ( إعجاز القرآن ) و ( علم البلاغة ) عن الغاية التى كان يتبغى أن ينتهيا إليها و حسن أن أزيل الان لبسا قد يقع فيه الدارس لكتاب ( الظاهرة القرآنية ) ففى ( مدخل الدراسة ) وفى بعض فصول الكتاب ما يوهم أن من مقاصده تثبيت قواعد فى ( علم إجاز القرآن \* من الوجه الذى يسمى به القرآن معجزا وهو خطأ فإن منهج مالك فى تأليفه دال أوضح الدلالة على أنه يعنى بإثبات صحة دليل النبوة وبصدق دليل الوحى وأن القرآن تنزيل من عند الله وأنه كلام الله لا كلام بشر وليس هذا هو ( إعجاز القرآن ) كما أسلفت بل هو أقرب إلى أن يكون بابا من ( علم التوحيد ) استطاع مالك أن يبلغ فيه غايات بعيدة قصر عنها أكثر من كتب من المحدثين وغير المحدين : فجزاه الله عن كتابه أحسن الجزاء**

**أما مسألة ( إعجاز القرآن )فقد بقيت خارج هذا الكتاب وهى عندى أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها ( العقل ) الحديث كما يسمونه حتى بعد أن يتمكن من إرسال كل دعامه يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصدق الوحى وبصدق التنزيل وايضا فهى المسالة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية الشعر الجاهلى وبالكيد الخفى الذى اشتملت عليه هذه القضية بل إنها لترتبط ارتباطا لا فكاك له بثقافتنا كلها وبما ابتلى به العرب فى جميع دور العلم من فرض منهاج حال من كل فضيلة فى تدريس اللغة وآدابها بل إنها لتشمل ماهو أرحب من ذلك تشمل بناء الانسان العربى او المسلم من حيث هو انسان قادر على تذوق الجمال فى الصورى والفكر جميعا**

**ومعرفة معنى ( إعجاز الثرآن ) ما هو وكيف كان أمر لا غنى عنه لمسلم ولا دارس وشانهأعظم من أن أعظم من أن يتكلم فيه امرؤ بغير تثبت من معناه وتمكن من تاريخه وتتبع للآيات الدالة على حقيقة وأنا لا أزعم أنى مستقصه فى هذا الموضع ولكنى مستعين بالله فذاكر طرفا مما يعين تامرء على معرفته**

**وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى هو وأمى حين فجاه الوحى فى غار حراء وقال له " اقرأ " " ما أنا بقارىء " ثم لم يزل حتى قرأ (**

**رجع بها وهو يرجف فؤاده فدخل على خديجة فقال " زملونى زملونى " فزملوه حتى ذهب عنه الروع وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به وسمع مقالا لا عهد له بمثله وكان رجلا من العرب يعرف من كلامها ما تعرف وينكر منه ما تنكر كان هذا الروع الذى اخذه بابى هو وأمى أول إحساس فى تاريخ البشر بمباينة هذا الذى سمع للذى كان يسمع من كلام قومه وللذى كان عرف من كلام نفسه ثم حمى الوحى وتتابع وأمره ربه أن يقرأ ما أنزل عليه على الناس على مكث فتتبع الافراد من عشريته وقومه يقرأ عليهم هذا الذى نزل إليه ولم يكن من برهانه ولا مما أمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا أنما هو إله واحد وأنه هو نبى الله بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه ويقروا له بصدق نبوته بدليل واحد هو هذا الذى يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو فى نفسه أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو ولا من كلام بشر مثله ثم أيضا لا معنى لها البتة إلا أن يكون وكان فى طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تمييزا واضحا بين الكلام الذى هو نحو كلام البشر والكلام الذى لي من نحو كلامهم وكان هذا القرآن ينزل عليه منجما وكان الذى نزل عليه يومئذ قليلا كما تعلم فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته وإذن فقليل ما أوحى إليه من الايات يومئذ وهو على قلته وقلة ما فيه من المعانى التى تنامت وتجمعت فى القرآن جملة كما نقرؤه اليوم منطو على دليل مستبين قاهر يحكم له بأنه ليس من كلام البشر وبذلك يكون دليلا على أن تأليه عليهم وهو بشر مثلهم نبى من عند الله مرسل**

**فغذا صح هذا وهو صحيح لا ريب فيه ثبت ما قلناه أولا من أن الايات القليلة من القرآن ثم الايات الكثيرة ثم القرأن كله أى ذلك كان فى تلاوته على سامعه من العرب هو الدليل الذى يطالبهىبأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لحنس كلام البشر وذلك من زجه واحد وهو وجه البيان والنظم**

**واذا صح ان قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه ثبت أن ما فى القرآن جملة من حقائق الاخبار عن الامم السلفة ومن أنباء الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب الدلالات على مالم يعرفه البشر من اسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله كل ذلك بمعزل عن الذى طولب به العرب وهو أن يستبينوا فى نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم من وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين وههنا معنى زائد فإنهم إذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ماجاء فيه من أخبار الامم وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على اسرار الكون هو كله حق لاريب فيه وإن ناقض ما يعرفون وإن باين ما انفقوا على أنه عندهم أو عند غيرهم حق لا يشكون فيه وإذن فإقرارهم من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين دليل يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه مباين لنظم البشر وبيانهم وأنه بهذا من كلام رب العالمين وهذا أمر فى غاية الوضوح**

**فمن هذا الوجه كما ترى ظولب العرب بالإقرار والتسليم ومن هذا الوجه تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم تجده من جنس كلامها لأنه نزل بلسانهم لسان عربى مبين ثم تجده مباينا لكلامها فما تدرى ما تقول فيه من طغيان اللدد والخصومة وإنه لخير مشهور خبر تحير النفر من قريش فيه وعلى رأسهم ( الوليد بن الغيرة ) لقد ائتمرت قريش يومئذ حين حضر الموسم لكى يقولوا فى هذا الذى يتلى عليهم وعلى الناس قولا واحدا لا يختلفون فيه وأرادوا الرأى بينهم فى تاليه علي أهل المواسم وتشاوروا أن يقولوا كاهن أو مجنون أو شاعر أو ساحر فلماذا آلت المشورة إلى ذى رأيهم وسنهم وهو ( الوليد بن المغيرة ) رد كل ذلك بالحجة عليهم ثم قال " والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ةإت فرعه لجناة ةما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء يقول يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المؤء وعشيرته**

**فهذا التخير المظلم الذى غشاهم وأخذ منهم بالكظم والذى نعته الوليد فاستجاد النعت كان تحيرا لما يسمعون من نظمه وبيانه لا ما يدركون من دقائق التشريع وخفى الدلالات زما لايؤمنون به من الغيب ونالا ثعرفون من انباء القرون التى حات من قبل وحمى الوحى وتتابع عاما بعد عام وأقبل صلى الله عليه وسلم يلح جهرة فيقرأ القرآن عليهم وعلى من طاف بهم من العرب فى بطن مكة وفى مواسم الحج والاسواق وهبت قريش تناوئه وتنازعه وتلح فى اللدد والخصومه وفى الإمكار والتكذيب وفى العداوة والأذى فلما طال تكذيبهم وإنكارهم على كا يجدون فى أنفسهم من مثل الذى وجد الوليد ومن مثل الذى آمن عليه من آمن من قومه العرب صب الله عليهم من الوحى ما هالهم وأفزعهم كانوا يتحيرون فى هذا الذى يتلى عليهم وظل رسول الله صلى الله عليهم بمكة ثلاثة عشر عاما والمسلمون قليل مستضعفون فى أرض مكة وظل الوحى يتتابع وهو يتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثم بعشر سور مثله مفتريات فلما انقطعت قواهم قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعا منافذ اللددوالعناد فقال : ( وكذلك كان**

**فكان هذا البلاغ القاطع الذى لا معقب له هو الغاية التى انتهى ‘ليها أمر القرآن وأمر النزاع فيه لا بين رسول الله وبين قومه من العرب فحسب بل بينه وبين البشر جميعا على اختلاف السنتهم وألوانهم لا بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين وهذا البلاغ الحق الذى لا معقب له من بين يديه ولا من خلقه هو الذى اصطلحنا عليه فيما بعد وسميناه ) إعجاز القرآن ) وهذا الذى لقتصصته لك تاريخ مختصر أشد الاختصار ولكنهممجزىء فى الدلالة على تحديد معنى ( إعجاز القرآن ) بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ على إطلاقه ومجزىء فى الدلالة على هذا ( الإعجاز ) من أى وجوه الإعجاز كان إعجازا وإنه ليكشف عن أمور لا غنى لدارس عن معرفتها**

**الاول : أن قليل القرآن وكثيره فى شأن ( الإعجاز ) سواء**

**الثانى : أن الإعجاز كائن فى وصف القرآن وبيانه ونظمه ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان فى لغة العرب ثم فى سائر لغات البشر ثم بيان الثقلين جميعا إنسهم وحنهم متظاهرين**

**الثالث : أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القجرة على الفصل بين الذى هو من كلام البشر والذى هو ليس من كلامهم**

**الرابع : أن الذين تحداهم به كانوا يدؤكون أن ما طولبوا به من الاتيان بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات هو هذا الضرب من البيان الذى يجدون فى أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر**

**الخامس : أن هذا التحدى لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقا لمعانيه بل أن يأتوا بنا يستطيعون افتراء واختلافه من كل معنى أو غرض مما يعتلج فى نفوس البشر**

**السادس : أن هذا التحدى للتقلين جميعا إنسهم وجنهم متظاهرين تحد مستمر قائم إلى يوم الدين**

**السابع : أن مافى القرآن من مكنون الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب أيات الله فى خلقه كل ذلك بمعزل عن هذا التحدى المفضى إلى الإعجاز وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلا على أنه من عند الله تعالى ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم وأنه كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم فهذه أمور تستخرجها دراسة تاريخ نزول القرآن ومدارسة آياته فى جدال المشركين من العرب فى صحة الآيات التى جائتهم من السماء كما جاءت سائر آيات الانبياء ومعجزاتهم وحسبك فى بيان ذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من نبى إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " صحيح البخارى فالقرآن هو أية الله فى الارض آيته المعجزة من الوحه الذى كان به معجزا للعرب ثم للبشر ثم للثقلين جميع**

**وكل لبس يقع فى ضبط هذه الامور المتعلقة بمعنى ( إعجاز القرآن ) وكل اختلال فى تمييزها وتحديد ما تفتضيه فى العقل والنظر سبيل إلى انتشار أغمص اللبس وأبلغ الخلل فى فهم معنى ( إعجاز القرآن ) كم الوجه الذى صار به القرآن معجزا للعرب ثم لسائر البشر على اختلاف السنتهم ثم للثقلين جميعا متظاهرين هذا بعض ما أدى إليه النظر المجرد فى استخراج المعنى الذى هو مناط التحدى ومفصل الاعجاز وأرجوا أن أكون قد بلغت فى كشفه مقنعا ورضى ولكمه بقى ما لابد منه أن نستنبط بهذا الاسلوب من النظر المجرد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم فإذا صح أن ( الإعجاز ) كائن فى وصف القرآن ونظمة وبيانه بلسان عربى مبين وأن خصائصه مبيانه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر فى بيانهم لم يكن لتحديهم به معنى إلا أن تحتمع لهم وللغتهم صفات بعينها**

**أولها : أن اللغة التى نزل بها القرآن معجزا قادرة بطبيعتها هى أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية فى البيان فيما تطيقه القوى وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجود**

**ثانيهما : أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين وهذا إدراك دال على أتهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه قدرا وافرا يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه أن تاليه عليهم نبى من عند الله مرسل**

**ثالثهما : أن البيان كان فى انفسهم أجل من أن يخونوا الأمانة فيه أو يجوروا عن الإنصاف فى الحكم عليه فقد قرعهم وغيرهم وسقّه أحلامهم وأديانهم حتى أستخرج أقصى الضرورة فى عدواتهم له وظل مع ذلك يتحداهم فنهتهم امناتهم على البيان عن معارضته ومناقضته وكان أبلغ ما قالوه ( ولكنهم كفوا السنتهم فلم يقولوا هذه واحدة واخرى أن لم ينصب لهم حكما بل خلّى بينهم وبين الحكم على ما بأتون به معارضين له ثقة بإنصافهم فى الحكم على البيان فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة**

**رابعها : أن الذين اقتدوا على مثل هذه اللغة وأوتوا هذا القدر من تذوق البيان ومن العلم بأسراره ومن الأمانة عليه ومن ترك الجور فى الحكم عليه يوجب العقل أن يكونوا كانوا قد بلغوا فى الاعراب عن انفسهم بألسنتهم المبينة عنهم مبلغا لا يدانى**

**وهذه الصفات تقضى بنا إلى التماس ما ينبغى أن تكون أن تكون عليه صفة كلامهم إن كان بقى من كلامهم شىء فالنظر المجرد أيضا يوجب فى نعت ما خلفوه أن تجتنع فيه ضروب مختلفة من البيان لا يجزىء أن تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها بل على شجاعتها أيضا حتى تلين لكل بيان تطيقه السنة البشر على اختلاف السنتهم فهل بقى من كلامهم شىء يستحق أن يكون شاهدا على هذا ودليلا تعم بقى ( الشعر الجاهلى )**

**وإذن ينبغى أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها فإن النظر المجرد والمنطق المتساوق والتمحيص المتتابع كل ذلك قد أفضى بنا إلى تجريد معنى ( إعجاز القرآن ) مما شابه وعلق به حتى خلص لنا أنه من قبل النظم والبيان ثم ساقنا الاستدلال إلى تحديد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم ثم خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم ثم التمسنا الشاهد والدليل على الذى أدانا إليه النظر فإذا هو ( الشعر الجاهلى ) وإذن فالشعر الجاهلى هو أساس مشكلة ( إعجاز القرآن ) كما ينبغى أن يواجهها العقل الحديث وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير لبقرآن على المنهج القديم كما ظن أخى مالك وكما يذهب إليه أكثر من بحث أمر إعجاز لقرآن على وجه من الوجوه ولكن الشعر الجاهلى قد صُبّ عليه عليه بلاء كثير آخرها وأبلغها فسادا وإفسادا ذلك المنهج الذى ابتجعه ( مرجليوث ) وشيعته وكهنته والذين ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا كما شهد بذلك رجل من جنسه هو ( آربرى ) كان يطوى تحت أدلته ومناهجه وحججه إدراكا لمنزلة الشعر الجاهلى فى شأن إعجاز القرآن لا إدراكا صحيحا مستبينا بل إدراكا خفيا مبهما تخالطه ضغينة مسكنة للعرب وللإسلام وهذا المستشرق وشيعته وكهنته كانوا أهون شانا من أن يحوزوا كبيرا بمنهجهم الذى سلكوه وأدلتهم التى احتبوها لما فى تشكيكهم من الزيف والخداع ولكنهم بلغوا ما بلغوا من استفاضة مكرهم وتغلغله فى جامعاتنا وفى العقل الحديث فى العالم الاسلامى بوسائل أعانت على نفاذهم ليست من العلم ولا من النظر الصحيح فى شىء وقد استطاع رجال من اهل العلم ان يسلكوا إلى إثبات صحة الشعر الجاهلى مناهج لا شك فى صدقها وسلامتها بلا غش فى الاستدلال وبلا خداع فى التطبيق ولا مراء فى الذى يسلم ما يتيح به صريح العقل وصريح النقل إلا أنهم لم يملكوا بعد من الوسائل ما يتيح لهم أن يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بباطلهم وقد ابتليت أنا بمحنة ( الشعر الجاهلى ) عندما ذر قرن الفتنة أيام كنت طالبا فى الجامعة ودارت بى الايام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة ( الشعر الجاهلى ) لا عن طريق روايته وحسب بل عن طريق أخرى هى ألصق بأمر ( إعجاز القرآن ) فإنى محصت ما محصت من الشعر الجاهلى حتى وجدته يحمل هو نفسه فى نفسه أدلة صحته وتوبته إذ تبينت فيه قدرة خارقة على ( البيان ) وتكشف لى عن روائع كثيرة لا تُحد وإذا هو علم فريد منصوب لا فى أدب العربية وحدها بل فى آداب الامم قبل الاسلام ةبعد الاسلام وهذا الانفراد المطلق ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنقسهم هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته ولقد شعلنى ( إعجاز القرآن ) كما شغل العقل الحديث ولكن شغلنى أيضا هذا ( الشعر الجاهلى ) وشغلنى أصحابه فأدى بى طول الاختيار والامتحان والمدارسة الى هذا المذهب الذى ذهبت اليه حتى صار عندى دليلا كافيا على صحته وثبوته فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت فى الثرى أعيانهم رأيتهم فى هذا الشعر احيانا يغدون ويروحون رايت شابهم ينزوبه جهله وشيخهم تدلف به حكمته ورايت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق وغاضبهم تربد سحنته حتى تظلم ورايت الرجل وصديقه والرجل وصاحبته والرجل الطريد ليس معه احد ورأيت الفارس على جواده والعادى على رجليه ورأيت الجماعات فى مبداهم ومحضرهم فسمعت غزل عشاقهم ودلال فتياتهم ولاحت لى نيرانهم وهم يصطلون وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ الشعر حتى سمعت فى لفظ الشعر همس الهامس وبحة المسكين وزفرة الوجد وصرخة الفزع وحتى مثلوا بشعرهم نصب عينى كأنى لم أفقدهم طرفا عين ولم افقد منازلهم ومعاهدهم ولم تغب عنى مذاهبهم فى الارض ولا مما أحسوا ووجدوا ولا مما سمعوا وأدركوا ولا مما قاسوا وعانوا ولا خفى عنى شىء مما يكون به الحى حيا فى هذه الارض التى بقيت فى التاريخ معروفة باسم ( جزيرة العرب )**

**وهذا الذى أفضيت إليه من صفة الشغر الجاهلى كما عرفته أمر ممكن لمن اتخذ لهذه المعرفة هى اول الطريق الى دراسة شعر أهل الجاهلية من الوجه الذى يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته على أنه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الاسلام فإذا صح ذلك وهو عندى صحيح لا شك فيه وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة ملتمسين فيه هذه القدرة البانية التى يمتاز بها اهل الجاهلية عمن جاء بعدهم ومستنبطهم من ضروب البيان المختلفة التى أطاقتها قوى لغتهم والسنتهم فإذا تم لنا ذلك فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس فى القرآن الذى أعجزهم بيانه خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر وهاهنا أمر له خطر عظيم فلا تظنن أن الشأن فى دراسة ( الشعر الجاهلى ) هو شن المعانى التى تناولها والاغراض التى قيل فيها والصور التى انكوى عليها واللغة التى استخدمها من حيث الفصاحة والعذوبة وما يجرى مجراهما بل الشأن فى ذلك أبعدوأعمق وأعوص إنه تمييز القدرة على البيان وتجريد ضروب هذا ( البيان ) على اختلافها واستخلاص الخصائص التى اتاحت للغتهم أن تكون معدنا للسمو بالإبانة عن جوهر إحساسهم سموا يجعل للكلام حياة كنفخ الروح فى الجسد القائم وكقوة الإبصار فى العين الجامدة وكسجية النطق فى البضعة المتلجلجة المسماة باللسان فإذا اتخذنا لهذه الدراسة أهبتها وأعددنا لها من الصبر والجد والحذر ما ينبغى لها واللسان لساننا والقوم اسلافنا والسلائق مغروزة فى اعماق طباعنا ثم أصّلنا للدراسة مناهج تعين عليها واستحدثنا لها سلوبا يلائمها فعندئذ يدنو الذى نراه بعيدا ويتحلى لنا ما كان غامضا ويكشف لنا (الشعر الجاهلى ) عن اروع روائعه ويبذل لنا ما استكن فيه واستتر من اصول ( البيان ) الانسانى بغير تخصيص للغة العرب فنراها مائلة على أدق وجوهه وأغمضها وفى أثم صورة وأكملها وهذا الذى أفضت فيه من ذكر الشعر الجاهلى وما وجدته فيه فى نفسى باب عظيم أسأل الله أن يعيننى بحوله وقوته حتى اكشف عنه وأجليه وحتى أؤيده بكل برهان قاطع على تميزه عن كل شعر العرب بعده وبذلك يكون هو نفسه دليلا حاسما على صحة روايته وعلى أن الرواة لم ينحلوه الشعراء افتراء عليهم وغير خاف أن الذى وصلنا إلى هذا اليوم من شعر الجاهلية قليل مما روته الرواة منه والرواة القدماء أنفسهم لم يصلهم من شعرها إلا الذى قال ابو عمرو بن العلاء فى أوائل القرن الثانى من الهجرة " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير " ومع ذلك فهذا القليل مجزى إن شاء الله فى الدلالة على ما نريد من الإبانة عنتميز شعرهم عن شعر من جاء بعدهم وفيه جم واف من خصائص البيان التى امتاز بها اهل الجاهلية ولكن كيف بقى هذا الشعر إلى يومنا هذا ؟ بقى مادة للغة العرب وشاهدا على حرف من العربية وعلى باب من النحو وعلى نكتو فى البلاغة وبقى ذخرا للرواة وركزا يستمد منه شعراء الاسلام ومنبعا لتاريخ العرب فى الجاهلية بل بقى كنزا لعلوم العرب جميعا لكل علم منه نصيب على قدره ولكن غاب عنا أعظم ما بقى له هذا الشعر أن يكون مادة لدراسة البيان المفطور فى طبائع البشر مقارنا بهذا البيان الذى فات طاقة بلغاء الجاهلية وكانت له خصائص ظاهرة تجعل كل مقتدر بليغ مبين وكل متذوق للبلاغة والبيان لا يملك إلا الإقرار له بأنه من غير جنس ما يعهده ذوقه وأن مبلغه إلى الناس نبى مرسل وأنه لا يطيق أن يختلفه أو يفتريه لأنه بشر لا يدخل فى طوقه إلا ما يدخل مثله فى طوق البشر وأنه إن تقول غير ما أمر بتبليغه وتلاوته بأن للبشر كذبه وحق عليه قول منزله من السماء سبحانه (**

**ولسائل ان يسأل فحدثنى إذن لم بقى شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها ؟ وكيف غاب هذا الذى زعمت عن أئمة العلم من قبلك ؟ وكيف أخطاه علماء البلاغة وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن وهم أقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك ؟ وما الذى صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج زما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن فى القديم والحديث ؟ وحق على أن أجيب ولكن يقتضينى جواب هذه المسألة أن أقتنص قصة أخرى لا أستوعب القول فى حكايتها تفصيلا بل أوجز المقال فيها إيجازا مدفوعا عنه الخلل ما أطقت وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق ؟**

**فأهل الجاهلية هم من وصفت لك منزلتهم من البيان وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة فى قلوبهم ونفوسهم وعلمهم بأسراره وتغلغلهم فى إدراك الحجاز الفاصل بين ماهو من نحو بيان البشر وما ليس من بيانهم أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم هو فى آيات الله بمنزلة عصا موسى وإبراء الأكمه والأبرص فى آيات أنبيائه لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزيله من السماء على قلب رجل منهم وأن هذا الرجل نبى مرسل عليهم أن يتبعوه وأن يستجيبوا لما دعاهم إليه فلما كذبوه وأنكروا تبوته تحداهم أن ياتوا بمثل هذا بمثل هذا الذى يسمعون فى نظمه وبيانه وألح عليهم يتحداهم فى أيات منه كثيرة ولكنهم وجدوا فى انفسهم مفارقته لبيان البشر وجدانا الجأهم إلى ترك المعارضة إنصافا للبيان أن يُجار على حقه وتنزيها له أن يزرى به جورهم عن هذا الحق وعلى الذى تلقوه به من اللدد فى الخصومة والعناد لم يلبث أن استجاب له النفر بعد النفر إقرارا وتسليما بأن الكتاب كلام الله وان الرجل نبى الله ثم تتابع إيمان المؤمنين منهم ختى لم تبق دار من دور أهل الجاهلية إلا دخلها الإسلام أو عمّها والقوا إليه المقادة على أنه لا يتم إيمان أحدهم حتى يكون هذاالرجل بأبى هو وأمى أحب إليه من أهله وولده وهذه أعمالهم تصدق ذلك كله فاقبل كل بليغ منهم مبين وكل متذوق للبيان ناقد يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به ويتتبع تنزيله تتبع الحريص المتلهف ويصيح له وينصت حين يتلى فى الصلوات وعلى المنابر يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام وكلهم مخبت خاشع لذكر الله وما نزل من الحق يصدق إهباتهم وخشوعهم ما قال الله سبحانه ( ثم صار للقرآن فى جزيرة العرب دوى كدوى النحل وخشعت أسماع للجاهلية كانت بالامس للذى يتلى عليهم من كلام الله الذى خلقهم وجعل لهم السمع والابصتر والافئدة وأخبتت السنة للجاهلية إقرارا لهذه القرآن بالعبودية كما أقروا هم للذى اصطفى لغتهم لكلامه سبحانه بالعبودية وماجست بهم جزيرة العرب مهللين مكبرين مسبحين كلما علوا شرفا أو هبطوا زاديا وأقاموا نالين للقرآن بالغدو والآصال وبالليل والاسحار وانطلقوا يتتبعون سنن نبيهم ويتلقفونها وخلعوا عن قلوبهم ونفوسهم وعقولهم والسنتهم ظلمة الجاهلية ودخلوا بألسنتهم وعقولهم ونفوسهم وقلوبهم فى نور الاسلام ثم طار بهم هذا القرآن فى كل وجه يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويحملون إليهم هذا الكتاب المعجز بيانه لبيان البشر والذى نزل بلسانهم حجة على الخلق وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام فى كتاب ( طبقات فحول الشعراء ) حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب فى أهل الجاهلية " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فقال ابن سلام تعليقا على ذلك " فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته قلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب فى الامصار راجعوا رواية الشعر فلم يتولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير "**

**ولا يغررك ما قال ( ابن سلام) فتحسب ان اهل الجاهلية الذين هداهم الله للاسلام طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم فانصرفوا عنه صمّا وبكمّا وخلعوه عن هقولهم والسنتهم كما خلعوا جاهليتهم فهذا باطل تكذبه أخبارهم وينقصه منطق طبائع البشر وتاريخ حياتهم بل كان أكبر ما لحقه من الضيم أن نازعه القرآن فصرف همهم إليه فكان نصيبه من إنشادهم وتقصيدهم القصائد أقل مما كان فى جاهليتهم ولكنه بقى مع ذلك هو الذى يتوبون إليه إذا شق عليهم طول مدارسة القرآن وهو الذى يستريحون إليه إذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم وسن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم وظل ذلك دأبهم فى أول إسلامهم ونشأ أبناؤهم يسمعون منهم شعر جاهليتهم ويستمعون إلى مكنوز بيانهم فى السنتهم فيخرجون أيضا مركوزا ذلك البيان فى طباعهم وينتقل ذلك بما يشبه العدوى إلى مُسْلمة الأعاجم وأبنائهم بحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا نزل معهم الذكر الحكيم ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه وقوموا به لسان الذين أسلموا أسلموا من غير العرب وأصبح زاد المتفقه فى معرفة معانى كتاب ربه هو مدارسة الشعر الجاهلى لأنه لا يستقل أحد بفهم القرآن حتى يستقل بفهمه وحسبك أن تعرف مصداق ذلك قول الشافعى فيما بعد فى القرن الثانى من الهجرة " لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله إلا رجلا عرف بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمة ومتشابهه وتأويله وتنزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن فليس يكفى أن يكون عارفا بالشعر بل بصيرا به أشد البصر كما قال الشافعى رحمه الله والذى قاله الشافعى بعد قرن هو الذى جرى العمل عليه فى اول الاسلام**

**واستفاضت بالمسلمين الفتوح واستفاض معهم شعر جاهليتهم واسلمت الامم ودخلت فى العربية كما دخلت فى العربية كما دخلت فى الاسلام ونزل بيان القرآن كالغيث على فطرة جديدة فطرة اهل الالسنة غير العربية بعد أن رويت من بيان الجاهلية فى الشعر الجاهلى وانتزجت العرب من الصحابة والتابعين وأبنائهم بأهل هذه الالسنة التى دخلت فى العربية فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ظل ينتقل ويتغير ويتبدل جيلا بعد جيل ولكن بقى أهله بعد ذلك كله محتفظين بقدره عتيدة حاضرة هى تذوق البيان تذوقا عليما يعينهم على تمييز بيان البشر كما نعهده سلائقهم وفطرهم من بيان القرآن الذى يفارق خصائص بيانهم من كل وجه ثم فارت الارض بالاسلام من حد الصين شرقا الى حد الاندلس غربا ومن حد بلاد الروم شمالا الى حد الهند جنوبا وسمع دوى القرآن العربى فى أرجاء الارض المعمورة وقامت المساجد فى كل قرية ومدينة وازدحمت فى ساحاتها صفوف عباد الرحمن وتداعى إليها طلاب العلم فطائفة تتلقى القرآن من قرائه وطائفة تدرس تفسير أياته وطائفة تروى حديث رسول الله عن حفاظه وطائفة تأخذ العربية عن شيوخها وطائفة تتلقف شعر الجاهلية والاسلام عن رواته طوائف بعد طوائف فى أنحاء المساجد المتدانية طوائف من كل لون وجنس ولسان كلهم طالب علم وكلهم يتنقل من مجلس شيخ ألى مجلس شيخ آخر فكل ذلك علم لا يستغنى عنه مسلم تال للقرآن لا بل حتى اسواقهم قام فيها الشعراء ينشدون شعرهم او يتنافرون به ويتهاجون والرواة تحفظ والتاس يقبلون ينصتون وينقلبون يتجادلون وعجّت مواحى الارض بالقرآن وباللسان العربى لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان فى أهل كل دين وجاءوا بالمراء والجدل وباللدد والخصام وشققوا الكلام بالرأى والهوى فنشأت بوادر من النظر فى كل علم وعندئذ نجم الخلاف وانتهى الخلاف إلى الجرأة وأفضت الجرأة يوما إلى رجل فى أواخر دولة بنى أمية يقال له ( الجعد بن درهم ) وكان شيطانا خبيث المذهب تلقى مذهبه عن رجل من ابناء اليهود يقال له ( طالوت ) فكذب القرآن فى اتخاذ ابراهيم خليلا وفى تكليم موسى إلى هذا وشبهه وكان من قوله إن فصاحة القرآن غير معجزة وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها فضحى به خالد بن عبد الله القسرى فى عيد الاضحى فى نحو سنة 124 من الهجرة وكلام ( الجعد ) كما ترى استطانة رجل جرىء اللسان خبيث المنبت بلا حجة من تاريخ او عقل ولم تطد دولة بنى العباس ترسى قواهدها حتى دخلت بعض العقول الى فحص ( إعجاز القرآن ) من باب غير باب السفهوالاستطالة فقام بالانر كهق المعتزلة ولسانها ( أبو إسحاق ابراهيم بن سيار النظام ) فأتاه من قبل الرأى والنظر حتى زعم أن الله قد صرق العرب عن معارضة القؤرآن مع قدرتهم عليها فكانت هذه الصرفة هى المعجزة أما معجزة القرآن فهى فى إخباره بكل غيب مضى وكل غيب سيأتى وهذه مقالة لا اصل لها إلا الحيرة والانبهار من هذا الذى أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم وهب قوم يعارضونه ويجادلونه منهم صاحبه أبو عثمان الجاحظ فألف كتابه فى ( نظم القرآن ) وأنه غاية فى البلاغة وقال الجاحظ وغيره من يليهم ولكن ظل الامر محصورا فى إثبات ( الصرفة ) وإبطالها وفى طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه وخلوه من التناقض واشتماله على المعانى الدقيقة وما فيه من نبأ الغيب ألى آخر ماتجده مبسوطافى كتب القوم والذى عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا صم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممكن عرفوا باسم المتكلمين وكان امرهم امر جدال ويسطة لسان وغلبة حجة ومناهضة دليل بدليل حتى إذا صارت مسألة ( إعجاز القرآن ) مسألة تستوجب أن يتبرى لها رجل صادق انبرى لهؤلاء المتكلمين ( ابو بكر الباقلانى ) المتوفى سنة 403 هجرية والناس يومئذ بين رجلين كما قال هو نفسه " ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى اصول ادين وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين وذكر لى عن بعض جهالهم انه جعل بعدله ببعض الاشعار ويوازن بينه وبين غيره من ملحدة هذا العصر وقد سبقهم إلى عُظْم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ( كتابه إعجاز القرآن ص 5 و6 ) فهذا هو الذى حفزه وأهاجه حتى كتب كتابه المعروف ( إعجاز القرآن ) وكتب الباقلانى كتابه وأهل اللسان العربى يومئذ هم الناس ولم يزل تذوقهم للبيان ما وصفت لك تذوق ملتبس بالطباع مردوه الى السلائق مشحوذ بمدارسة الشعر وسماعه وروايته ولكن لم يضر جمهور هذه الطباع شيئا أن استفاض الجدل وظهر سلطانه وأن صارت كل فرقة تمضغ كلاما تناضل بهعن رأيها وتقطع به حجة خصمها طلبا للغلبة لا تمحيصا للرأى وفحصا عن الحق**

**ورضى الله عن أبى بكر الباقلانى فقد جمع فى كتابه خيرا واستفتح بسليم فطرته أبوابا كانت قبلة مغلقة وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة وإن لم يقصده بها هو قصد العافية التى انتهت إليها**

**كان الباقلانى حقيقيا أن ينهج النهج الذى أدانا اليه تمحيص مسألة ( الإعجاز ) ويومئذ يجعل الشعر الجاهلى أصلا فى دراسة بيان عرب الجاهلية من ناحية تمثله لخائص بيان البشر والباقلانى رضى الله عنه كان يجد فى نفسه وجدانا واضحا ان خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر وقد المح الى ذلك فى كتابه كما المح اليه من سبقه بيد ان جدل المتكلمين قبله وعلى عهده وخوض الملحدين فى أصول الدين كما قال ومنهجهم فى اللجاجة وطلب الغلبة كل ذلك لم يدعه حتى استغرقه فى الرد عليهم على مثل منهاجهم من النظر ثم دارت به الدنيا لما بلغه ان بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الاشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام**

**وانت تستطيع أن تقرأ كتابه فصلا فصلا لتجد مصداق ما أقول لك حتى تنتهى إلى الذى هاجه من موازنة القرآن ببعض الاشعار هب إلى نسفيه هذه الموازنة فدعاك فى أوسط كتابه أن تعمد معه إلى ما لاشك فى جودته من شعر امرىء القيس وما لاترتاب فى براعته ولا تتوقف فى فصاحته كما قال فى كتابه ( ص 241 ) فطرح بين يديك هذه القصيدة وجعل يفصلها وينقذها ويمحو من محاسنها ويثبت ويقف بك على مواضع خللها ويقضى بك الى مكامن ضعفها ولك يزل يعريها حتى كشف الغطاء عن عوارها ثم ختم ذلك بقوله " وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى آياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلامة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والاستصعاب والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه وله شركاء فى نظائرها ومنازعون فى محاسنها ومعارضون فى بدائعها فلما انتهى من ذلك افتتح فصلا نبيلا ذكر فيه أيات من القرآن وحاول أن يقف بك على بدائع نظمها وبيانها وهذا الفصل هو ادل الدليل على أن الباقلاتى لو كان استقام له المنهج الذى ذكرناه لبلع فيه غاية يسبق لها النتقدم ويكد فيها جهد المتأخر ولكنه لم يرد فى هذا الفصل على أن جعل يقف بك على بيان شرف الايات لفظا ومعنى ولطيف حكايتها وتلاؤم وصفها وتشاكل نظامها وأن نظم القرآن لا يتفاوت فى شىء ولا يتباين فى أمر ولا يختل فى حال بل له المثل الاعلى والفصل الاسنى ( كتابه ص 2و3و5و3 ) وذكر تناسب الايات فى البلاغة والابداع وتماثلها فى السلاسة والإعراب زانفرادها بذلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب أما غيرها من الكلام فهو يضطرب فى مجاريه ويختل تصرفه فى معانيه وهو كثير التلون دائم التغير والتنكر ويقف بك على بديع مستحسن ويعقبه بقبيح مستهجن ويأتيك باللفظة المسنكرة بين الكلمات التى هى كاللألىء الزهر ( كتابه ص 313 و 314 ) ثم انتهى الى قوله فى القرآن ؟ وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام وماله من علو الشأن لا يطلب مطلبا إلا انفتح ولا يسلك قلبا إلا انشرح ولا يذهب مذهبا إلا استنار وأضاء ولا يضرب مضربا إلا بلغ فيه السماء ولا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدها إلا قصرت ولا تظهر بحكمه فظنت أنها زبدة حكمها إلا قد أخلت إن الذى عارض القرآن بشعر امرىء القيس لأضل من حمار باهلة وأحمق من هبنقة ( كتابه ص 312 و 322 ) وصدق الباقلانى فى كل ما قال إلا أنه لم يزد على أن بيّن خلو القرآن من الاختلاف والتغير وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من العيب وخلل وكل ماهو قرين لضعف طبائعهم و استحكمت قواهم ودال على عماهم عن كثير من الحق وإن استنارت بصائرهم ولعمرى إنه الحق لا ينال منه الباطل ولكنه غير الذى ينبغى أن نتطلبه من كشف أصول البيان التى يفارق بها بيان لبقرآن بيان البشر من الوجه الذى فضلناه**

**وليس هذا موضع بحثنا الان ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلى وما كان من أمره فهذه الموازنة التى هاجت الباقلانى كما ذكر هو حملته على هتك الستر عن معلقة امرىء القيس ليكشف للناس عيبها وحللها لا ليستخرج منها خصائص بيانهم وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن فلما زل الباقلانى هذه الزلة وأخطأ الطريق زل به من بعده وأخطئوه وأخذوا الشعر الجاهلى كله هذا المأخذ ولكن العجب بعد ذلك أن ( الشعر الجاهلى ) ظل عند البغاء وجمهور الناس هو مثقف الألسنة والحجة على اللغة والشاهد على النحو وما إلى ذلك ولكنهم إذا جاءوا لذكر القرآن وإعجازه اتخذوه هدفا للنقد والتفلية وإظهار العيب وتبيين الخلل بإزاء كلام برىء من كل عيب وخلل فيبقى الامر موازنة لا عدل فيها وكان حسبهم من الدليل أن أهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشعرهم أو كلامهم هو إقرار لا معقب عليه بفضل هذا القرآن على شعرهم وكلامهم فلم تكن بالباقلانى حاجة الى سلوك هذا الطريق الذى سلكه إلا ما حخمله عليه ما نغق به جاهل من جهال المتلحدة من الموازنة بين الكلامين وتفضيل شعرهم على القرآن**

**وكان قد نازع ذلك بابآ آخر من اللجاجة فى الموازنة بين شعر الجاهلية وشعر المحدثين من شعراء الاسلام وظل الجدال فى تفضيل احدهما على الاخر بابا تقتحمه الالسنة طلبا للمغالبة والظهور واخل ذلك من الإزراء على الشعر الجاهلى وعيبه ما داخل فكان هذا أيضا صارفا عن مدارسته على الوجه الذى تطلناه فى صدر حديثنا وفى خلال ذلك كله تجمعت على فهم الشعر الجاهلى أخطاء شديدة الخطر غشت حقيقته بحجاب من التشتيت والضياع وما اصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير حتى اختلطت فيه المعانى أحيانا اختلاطا سهل لكل عائب أن يقول فيه ما عنّ له ومع ذلك ايضا بقى الشعر الجاهلى مثقفا للالسنة ومعدنا لشواهد اللغة والنحو والبلاغة**

**فليت شعرى أى بلاء ترى أصاب هذا الشعر**

**ثم تتابعت العصور على ذلك وعلى ماهو أشنع منه حتى أفضينا به فى هذا العصر الحديث إلى أقبح الشناعة يوم فرض الاستعمار الغربى الغازى على مدارسنا منهجا من الدراسة لا يقوم على اصل صحيح كان يرمى فى نهايته الى إضعاف دراسة العربية إضعافا شائنا لا مثيل له فى كل لغات العالم التى يتلقاها الشباب فى معاهد التعليم على اختلاف درجاتها ثم طمت الشناعة بعج سنين حين عزلت اللغة العربية كلها عزلا مقصودا عن كل علم وفن واصبح الشباب يتعلم لغته على انها درس محدد هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس وخاصة نفوس الشباب الغض ثم لما انشئت الجامعة ودخلها الشباب على ماهم فيه من الملل بلغتهم ومن الاستهانة بأمرها طلع قرن الشيطان بفتنة ( الشعر ) والتشكيك فى صحة روايته وطار الشر إلى الصحافه فاتخذت اللغة القديمة كلها لا الشعر الجاهلى وحده مادة للهزء والسخرية وللنكة والزراية لا بل تندروا بكل من بقى على شىء نت المحافظة على سلامة اللغة سلامة هى كإبراء الذمة لا أكثر ولا أقل**

**هذا تاريخ مختصر للأباب التى وقفت بالشعر الحاهلى حيث وقف قديما فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذى كشفته وبينته وكان لزاما عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة إعجاز القرآن دراسة صحيحة سليمة من الافات وهو تاريخ أشد اهتصارا للذى تبع ذلك فى العصر الحديث لما صار ( الشعر الجاهلى ) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لسانا ينطق حتى ألقى ذلك كله ظلا من الكآبة والظلمة على دراسات المحدثين فى الجامعة وغير الجامعة حين يدرس أحدهم هذا الشعر هذا الشعر الذى كان حين أنزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم نورا يضىء ظلمات الجاهلية ويعكفاهله على بيانه عكوف الوثنى للصنم ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الاوثان وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع قط باحد منهم استحف ببيانهم**

**وأنت خليق أن تعرف أن الشىء الذى طلبته واحتججت له وحاولت أن أكشف عن منهاجه ومذهبه إنما يتعلق بخصائص البيان فى القرآن وخصائص البيان فى القرآن وخصائص بيان البشر على اختلاف السنتهم وأن مخرج هذا غير مخرج هذا وأن الشعر الجاهلى إنما هو مادة الدراسة الاولى لان القرآن نزل بلسان العرب والذين نزل عليهم ثم تحداهم وأعجزهم هم أصحاب هذا الشعر والمفتونون به وببيانه وهذا باب غير الباب الذى افتتحه الباقلانى ثم فجر عيونه إمام البلاغة ( عبد القاهر الجرجانى ) المتوفى سنة 474 هجرية فى كتابيه ( دلائل الاعجاز ) و ) أسرار البلاغة ) ثم أبدع فيه العلماء م ابدعوه وزادوا فيه عليه ونقصوا وكان ذلك بعد أن أغلق الباب الذى فصلنا القول فيه وكان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلانى وعبد القاهر**

**فإا تم ما دعونا إليه أهل هذا اللسان العربى يوما ما وعسى أن يكون ذلك بتوفيق الله فسيكون ذلك فتخا مبينا لا فى تاريخ البلاغة العربية وحدها بل فى تاريخ بلاغة الجنس الانسانى كله وسيكون ايضا مقنعا ورضى لهذا ( العقل الحديث) الذى يتطلب فى معرفة ( إعجاز القرآن ) ما يرضى عنه ويطمئن إليه وليس هذا فحسب بل إن أهل الحق من أهل الاسلام سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة تسهل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس إلى كتاب الله الذى خص به العرب وجعل فيه ذكرهم على الدهر حين أنزله بلسانهم ولكنه جعله هدى للبشر جميعا عربهم وعجمهم ويومئذ ستبطل فتنة ( ترجمة القرآن ) من اصلها لسبب ظاهر اشد الظهور فإن البشر إذا يأتوا ببيان كبيان القرآن تدل تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان البشر فمن طول السفه وغلبة الحماقة ان يدعى احد انه يستطيع ان يترجم القرآن فيأتى فى الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر فإذا لم يكن ذلك فى طاقة أحد لم يكن لهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف ما يجعل القرآن كلاما كسائر الكلام لا آية فيه ولا حجة على أحد من العالمين ولا توجب ترجمته على أحد أن يؤمن بما فيه وإن خالف ما جرى عليه اعتقاده أو علمه إلا إذا آمن من قبل أنه كتاب منزل من السماء وهذا عكس لآية القرآن وهى أن بيانه هو الدليل القاطع على ليس من كلام البش وأنه كتاب منزل من السماء وأنه هو كلام ربالعالمين الذى تعبدنا بتلاوته والذى قال فيه رسول اللع صلى الله عليه وسلم " الماهر فى القرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران ( صحيح مسلم ) وقال أيضا " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر امثالها لا أقول ( الم ) حرف ولكن أقول الف حرف ولا حرف وميم حرف ( سنن الترمذى )**

**وأما بعج فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الامة بعض ما يلحقها بفضل أولها فتفتح بالقرآن آذانا صما وعيونا عميا وقلوبا غلقا وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم وتذودهم به عن اتباع خطوات الشيطان إلى اقتفاء الصراط المستقيم والله تعالى يقول لنبيه ( وعسى ان يتم على يد اخرها ما خبأه الله عن أولها وعسى أن يكون ذلك مخبوءا فى هذا الفصل الذى نجده فى انفسنا بين بيان الله سبحانه وبيان عباجة البشر ( ورحم الله مالك بن انس إذ يقول " لا يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها فإذا كات أولها لم يصلح إلا بالبيان فآخرها كذلك لن يصلح إلا به وإن امرأ يقتل لغته وبيانها وآخر يقتل نفسه لمثلان والثانى أغقل الرجلين**

**وشكر الله لأخى مالك بن نبى وقد دعانى إلى كتابه مقدمة لكتابه ( الظاهرة القرآنية ) ففتح لى به بابا من القول فى ( إعجاز القرآن) كنت أتهيب أن ألجه وبابا آخر من القول فى ( الشعر الجاهلى ) كنت اماطل نفسى دونه وأنا اعلم أنى قد قصرت فى ذلك كله واختصرت وإن كنت قد أطلت وأخشى أن أكون قد أمللت ولكن عذرى أن الرأى فيهما كان قد شابه ما كدره فبذلت جهدى أن أمحص القول فيهما ختى أنفى عنهما القذى وأخلصهما من الاذى مبتغيا بذلك وسيبلة إلى ربى سبحانه طلبت القربة عنده**

**(**

**والحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا به ولا فضل إلا من عنده**

**الاستاذ / محمود محمد شاكر**